ذلك من أنواع الحب ظواهر طبيعية فى نفس الإنسان ، ومن شأنها ان تشده وتلهيه وتنسيه ، لكن حب الله تعالى فوق كل حب ، لأن كل شئ محبوب فى الوجود من صنعه وفيض احسانه ، فيجب على المؤمنين ان يوجهوا حبهم إليه ، وتعلقهم به وعبادتهم له ، فإنه سبحانه هو خالق الحب ، وانه سبحانه هو المعبود ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب ﴾.[1]

علاقة المخلوق بالخالق

معصية العبد وتوبة الله عليه

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك إعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ [2] .

لقد قال بعض الحكماء : إن الله ركب الملائكة من عقل دون شهوة ، وركب الحيوانات من شهوة دون عقل ، وركب الإنسان من العقل والشهوة ، فمن غلب عقله على شهوته فهو كالملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو كالحيوان وبقى أن نقول فى مجال هذه القسمة : إن من وازن بين عقله وشهوته وعدل بينهما فهو إنسان ، وهو المخلوق الوسط بين الميل المادى والسمو الروحى .

والله الذى خلق الإنسان وسواه أعلم به ، فقد خلقه من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهو بهذا الطين قد يشده الذنب وتجذبه الخطيئة ، وبهذه الروح يرتفع درجات إلى عالم الملائكة .

---

[1] البقرة : ١٦٥ .

[2] النساء : ١٧ - ١٨ .

ولقد وصف الله المؤمنين الذين احسنوا إلى انفسهم باجتناب كبائر الاثم والفواحش ، ثم استثنى من تلك الذنوب صغائرها فسماه " اللمم " وغفر لعباده ، وبين الحكمة من ذلك فجعلها فى أطلاعه على نشأة عباده ومعرفته بطبيعتهم منذ خلقهم ، ومنذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم .

فلنقرأ معا قوله سبحانه وتعالى ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذ انتم أجنة فى بطون امهاتكم فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن أتقى ﴾ [1] .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تبين موقف الإنسان من ذنوبه ومعاصيه ، فقد يتعرض للذنوب أو تتعرض الذنوب له ، فيدفعها ما أستطاع ، فيفلح فى أجتناب بعضها ، ويتغلب عليه البعض الآخر ، وهو بين الوقوع فى الخطأ ، والإعتصام منه آدمى أنشأه الله من الأرض فهو يهفو إليها ، وخلق له قلبا فهو يتوب به ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ .

وباب التوبة مفتوح للعصاة والمذنبين ، لا يغلقه الله فى وجه أحد ، ولا يوصده أمام طالب ، بل أنه لينادى ، كل مسئ ليقلع عن سيئته ، ويدعو كل مذنب ليتوب عن ذنبه ، فعن ابى موسى الاشعرى عن النبى ﷺ انه قال (ان الله تعالى يبسط يده فى الليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها) [2] .

وليس الله سبحانه بحاجة إلى توبة عباده ، فإنه - سبحانه - لا تفيده توبتهم ولا تضره معصيتهم ، وهو الذى يقول فى الحديث القدسى : ((إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى)) ، ولكنه يفتح باب التوبة لعباده ، ليفتح امامهم باب الأمل ويغفر لهم الذنوب ليبسط لهم يد الرحمة ، ويقبل منهم العودة اليه بعد

---

[1] النجم : ٣١ - ٣٢ .

[2] رواه مسلم .

إعراضهم عنه لأنه هو الذى يقول ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقـــون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ [1] .

والآيتان اللتان صدرنا بهما المقال تفيدان ان الله قد كتب على نفسه الرحمة ، وانه تعالى قد اوجب على نفسه قبول التوبة بوعده الذى هو أثر كرمه وفضله ، وما دام قـد كتب على نفسه الرحمة واوجب على نفسه قبول التوبة ، فإن ذلك وعد يثق فى صدقـه المؤمنون ، ويطمئن إلى تحققه المذنبون التائبون ، أولئك هم الذين ﴿ يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فهم يعملون السوء ، وهو العمل القبيح الذى يسوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس ، وان علامات الايمان فى نفس المؤمن ان تسره حسـنته وأن تسوءه سيئته ، وان الفرق بينه وبين غيره انه يلم بالذنب فيندم عليه ويتوب عنـه ، وإن غيره يرتكب الخطيئة فيستمر فيها ويصر عليها ﴿ ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ [2] .

وأما الجهالة التى تصاحب الإنسان عند عمل السوء فهى حالة نفسـية تغلبـه ، وتلابس نفسه عند ثورة الشهوة ، أو ثورة الغضب ، فتذهب علمه ، وتنسيه الحق ولو إلى وقت قصير ، ولكنه يعود من قريب فى وقت قريب تسكن فيه تلك الثورة ، أو تنكسر به تلك السورة ، ويثوب اليه حلمه الذى غاب عنه ، ويرجع إليه عقله الذى زايله ، وكلما قرب وقت التوبة من وقت إقتراف الذنب كان الرجاء أقوى ، وكلمـا بعـد الوقـت بالإصرار والتسويف وعدم المبالاة كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح .

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على المعصية ، وتدفعه إلى الإستغفار عـن الذنوب وكذلك علم الرسول ﷺ اصحابه فعن ابى هريرة - رضى الله عنـه - قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والله إنى استغفر الله واتوب اليه أكثر من سبعين مرة)[3]

---

[1] الأعراف : ١٥٦ .

[2] الأعراف : ٢٠١ .

[3] رواه البخارى .

وإذا كان ذلك من الرسول الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فهو تعبير عن الشكر ومعرفة فضل الله ، ومن أجل ذلك فقد قال لسائله " أفلا أكون عبدا شكورا "؟ وأولى بالمؤمنين ان يستغفروا ربهم فى كل يوم وليلة .

ولقد أغتر بعض المذنبين بحلم الله ووعده بقبول توبة التائبين ، وجرأهم ذلك على الإصرار على الذنوب والآثام ، وقد ظنوا ان هذا الإصرار لا يضر المذنبين إذا تابوا قبل ان تبلغ الروح الحلقوم ، وصاروا يسوفون بالتوبة حتى يغرهم التسويف ، فيموتوا قبل أن يتمكنوا من التوبة وما يجب ان يقترن بها من أصلح النفس بالعمل الصالح وقد استثنى الله من العذاب اولئك الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فاؤلئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ [1]

وقد قال رسول الله ﷺ (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) .

ولايتنا فى ذلك مع ما ورد من الأحاديث والآثار عن قبول التوبة إلى ما قبل الغرغرة أى وقت الأحتضار ، كحديث ابن عمر وأحمد والترمذى :"" ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ""، فإن المقصود من ذلك عدم اليأس من رحمة الله ، وإغراء العبد بالتوبة فى أى وقت فإن الله ينادى عباده بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [2] .

وإن نفس الإنسان لتتدنس بالذنوب بالتدريج ، فإذا طال الأمد على مزاولتها تمكنت منها ورسخت فيها حتى تصير نكتة سوداء فى قلبه ، وأن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ولا تزول أثار الذنوب إلا بالتوبة الصادقة التى تطهر النفس بالعمل الصالح ، والصبر على تخليصها من الدنس فى زمن طويل يناسب الزمن الذى قضته فى المعصية ، لأن المعصية إذا تكررت صارت عادة تحتل نفس الإنسان وتستبد بمشاعره ، فإذا حاول التخلص منها فكأنما يقتلع ملكة من ملكات نفسه ، وذلك من

---

[1] الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

[2] الزمر : ٥٣ .

أعسر الأمور وأشقها ، ومن هنا كان لابد للإنسان ان يبادر بالتوبة قبل أن يستمر فى المعصية ، وأن يقلع عن الذنب قبل ان تحيط به الخطيئة ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [1] .

ومن كان قوى الإيمان بحيث لا يقع منه الذنب إلا عن بادرة غضب أو شهوة ، أو جهل بأنه معصية تستوجب العقوبة ، فهو من أولئك الذين يقع منهم السوء هفوة بعد هفوة وأولئك يتوب الله عليهم حيث يقول الله عز وجل ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ ، وقد ختمت هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ لأنه بعلمه - سبحانه - قد أطلع على نفوسهم حين امتزجت بالمعصية وألم بها الذنب فوجدها تقع تحت ضغط قوى اكبر من إرادته واشد من مقاومته ، ثم ندمت على مافعلت فى وقت ينفع فيه الندم ، فاقتضت حكمته - جل شأنه - ان يقبل توبتها وأن يتوب عليها ، والله يتوب على من تاب .

وهكذا شأن الإنسان فى جميع أعماله الإختيارية ، فإنه لا يقدم على عمل الا إذا توقع المنفعة منه أو جهل الضرر المترتب عليه ، ولا يصدق عمل السوء من الإنسان الا مع التلبس بالجهل وعدم إقامة ميزان القسط فى الترجيح بين الفعل والترك ، فإذا زال الجهل عن قريب فتاب كانت توبته مقبولة حتما ، وذلك بأن يتوب فى حال الصحة والأمل فى الحياة .

ومن أجل ذلك فقد ذكر القرآن الكريم " السوء " ليشعرنا أن التوبة تقبل ممن يقع منهم الذنب هفوة وتلم بهم المعصية ألماما ، ولكنهم لا يصرون عليها ، بل يتوبون من قريب .

وقال فيما لا تقبل توبتهم ﴿ يعملون السيئات ﴾ لأن السوء تراكم بعضه على بعض حتى صارسيئات ، ولأن الذنب قد تكرر إرتكابه حتى اصبح ذنوبا ، ولأن الجهل قد تكاثف على النفس الجانية حتى صارت مثل الظلمات .

---

[1] البقرة : ٨١ .

هؤلاء يعملون السيئات ويعلمون انها سيئات ، ويصرون على المعصية ويعتقدون انها معصية لله عز وجل ، ويتبعون هوى أنفسهم ويؤثرون إرضاء شهواتهم على رضوان الله ومنفعة عباده ، حتى يصير الخطأ ملكة تصرف إرادتهم ويتعذر معها التوبة ، وهي التي عبر عنها القرآن الكريم بالختم على القلوب والرين عليها ، وإحاطة الخطيئة بها ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ﴾ [1] ، ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ [2] . وان من الناس من تغلب شهواته فيطيعها ثم تقوم في نفسه الخواطر الإلهية فيندم على ما فعل ويعزم على الاقلاع عن الذنوب فأولئك أيضاً من التوابين ، ومنهم فريق جعل المجاهدة رياضة نفسية تقويه على اجتناب كبائر الإثم والفواحش الاّ اللمم ، وتظل الحرب في نفس هؤلاء سجالاً بين ما يلمون به من الصغائر وبين الخواطر التي هي جند الإيمان وهي واعظ الله في نفس كل إنسان .

وبعض الناس يقعون في الأثام ثم يتوبون ويستغفرون ثم يعودون إلى الأثام مرة آخرى ثم يتوبون ويستغفرون ، وهكذا تظل نفوسهم موزعة بين إرتكاب الذنب والندم عليه ، وهؤلاء في أدنى مراتب التوابين ، وهم في ذلك في محل الرجاء والعودة إلى الله ، لأن في نفوسهم قوة زاجرة تلومهم على الذنب ، وتذكرهم بالله ، وقد يكون في تكرار اللوم ، وتكرار الذنب قدرة قاهرة على التغلب على إلحاح الشهوات وهمزات الشياطين ، فيلحق أصحاب هذه النفوس بالتوابين المتطهرين ، اما إذا انكسرت الزواجر النفسية امام الشهوات فقد أحاطت الخطيئة بصاحبها فأصبح من المصرين الهالكين .

ولقد نفى الله سبحانه وتعالى قبول التوبة للذين يعملون السيئات ولا يتوبون عنها الا إذا حضر احدهم الموت بقول ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ﴾ ولم يقل :" وليست التوبة على الله ... " . كما قال : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ وذلك لأنه – سبحانه – لا يوجب على نفسه قبول توبتهم إذا تابوا ، ولكنه ينفى وقوع التوبة

---

[1] البقرة : ٧ .

[2] البقرة : ٩ .

الصحيحة منهم ، ولو تابوا توبة صحيحة صادقة لتابوا من قريب ، ولقصروا المسافة بين إرتكاب الذنب وبين الندم عليه ، ولكن سنة الله قد مضت عليهم فأحاطت بهم خطاياهم وسيئاتهم فلم تدع للطاعة والحسنات مكانا من نفوسهم إلى ان حضر أحدهم الموت ويئس من الحياة التى تمتع فيها ... عند ذلك قال : إنى تبت الآن ... وما هو من التائبين.

ولقد قرنت الآيات امثال هؤلاء فى رد توبتهم بالذين يموتون وهم كفار ، لأنه إذا لم يكن للمؤمن المذنب توبة عند حضور الموت ، فالأولى الا تكون هذه التوبة للكافر ، والكفر رأس الكبائر وقمة المعاصى .

كسب المخلوق فى ظل مشيئة الخالق

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [1] .

يوقن المؤمن ان كل شئ فى هذه الحياة بإذن الله ، وانه يخط طريقه فى الدنيا تحت مظلة من قضاء الله وقدره ، وهو لا ينفع نفسه ولا ينفع الناس إلا بشئ قد كتبه الله له ، ولا يضر نفسه ولا يضر الناس إلا بشئ قد كتبه الله عليه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه وما اخطأه لم يكن ليصيبه .

ولكن رغم هذا الإيمان اليقين بالقضاء والقدر فإنه مكلف بأن يسعى بمشاعر صادقة وعينين مفتوحتين ونفس راضية ، فهو يطلب الخير لنفسه ويحرص على ما ينفعه ، وذلك بناء على ما زوده الله به من فطرة تعرف الخير وعلى ما هيأ له من ملكات يستعين بها على شق طريقه فى الحياة ، وعلى ما بث به من غرائز يستعملها فى المحافظة على نفسه واستبقاء حياته وتحقيق مصلحته .

حتى إذا استكمل هذه الأدوات الإنسانية ، وأدى دوره وقام بواجبه نحو نفسه ، فقد استكمل أركان التوكل على الله ، ومن ثم فهو يسير ثابت الخطوات على الأرض موصول القلب بالسماء ، لأن عليه ان يسعى وليس عليه إدراك النجاح ، ولكن سعيه هذا

---

[1] الأعراف : ١٨٨ .

على أساس من اليقين ، وفى ضوء من التوكل عليه - سبحانه - يؤنسه ويهديه لأن الله لا يضيع أجر من احسن عملا .

وهو إذن يسعى بقدميه ويدعو بقلبه ، ويتسلح بغرائـــزه ويـــهتدى بفطرتـــه ، كالزارع يبذر الحب ويطلب الثمار من الرب ، وينفق جهده فى وقت الغـــرس ويرجـــو البركة فى وقت الحصاد .

وهو إذا خرج من بيته طالبا رزقه كان كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا لأنه قد توكل على الله حق توكله ، ومن هنا نجد الرسول ﷺ يقول فيما يروى عن أنس بـــن مالك رضى الله عنه : (من قال - يعنى من خرج من بيته - باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان)[1]

الإنسان اذن مكلف أن يحرص على مصلحته ويطلب الخير لنفسه من جهة ، وهو من جهة آخرى مطالب بالإيمان بقضاء الله ، وان إرادة الله خير له ، وأنه إذا اختار لنفسه فبهداية الله له وتوفيقه إياه ، فهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مستقلا بقدرته ، وإنما يملك ما يملك بقدرة الله ومشيئته ، وذلك هو معنى الاستثناء فى قوله تعالى :

﴿ إلا ما شاء الله ﴾ وهو يبين عجز المخلوق عن الأستقلال والأستغناء عن الله ، فـــهو لا يملك لذاته بذاته ، بل بمشيئة الله تعالى .

وإذا كانت هذه الآية خطابا للرسول ﷺ ، وبيانا من الله أنه لا يملك بمقتضـــى منصب الرسالة نفعا ولا ضرا بل يعجز عن ذلك بمقتضى بشريته ، فإن غير الرسول أولى بهذا العجز ، وأبعد عن الإطلاع على الغيب الذى هو شأن الخلق دون المخلوق .

والقلق النفسى أساس من أسس مشكلاتنا المعاصرة ، فهو موجة مدمرة وظاهرة عامة تجتاح الشباب وغير الشباب ، وهذا القلق قلق على المصير وقلق على الرزق وقلق على العمر ، والرزق معدود ومحدود ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقـــها ﴾ ، والأجل مكتوب ومقدور ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يســـتقدمون ﴾ ،

---

[1] رواه ابو داود الترمزى والنسائى .

ومن هنا كان الإيمان ملاذ الحيارى وملجأ الخائفين وكان القلق سمة من سمات الضعف البشرى حين يتجرد الإنسان من أسباب اتصاله بالسماء لشدة التصاقه بأسباب الأرض .

وان أساس العبودية الخالصة لله فى توجيه العباد إلى ربهم فيما يرجون من نفع ويخافون من الضر ، والله المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع ، وهو غير مقيد ولا خاضع للأسباب العادية التى تعارف عليها الناس ، والمقاييس التى هى من صنع البشر .

ولقد عاب الله على المشركين عبادتهم لآلهة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، فقال : ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ﴾ [1] .

وقال فى عجل بنى إسرائيل ﴿ أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولا ولا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ﴾ [2] .

ولما كان ملك الضر والنفع بيد الخالق وحده سبحانه وكان الطلب الذى يتوجه به الناس لجلب النفع وكشف الضر عبادة لا تجوز أن توجه إلى غير الله من العبادة ، فلقد أمر الرسول ﷺ ان يصرح بالبلاغ عنه بأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، ولقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم كثيرا ، ومنها قوله تعالى ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ﴾[3] .

ولقد ظهر ذلك المعنى فى قول الرسول ﷺ لأبنته :" يا فاطمة بنت محمد ، أعملى فإنى لا أملك لك من الله شيئا " .

ومن هنا أمر الله نبيه أن ينفى عن نفسه العلم بالغيب ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ولو أن النبى يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، وتجنب الضر .

فإن الناس يرغبون فى خيرهم الذى يجلب لهم المنافع المادية كالمال والمعنوية كالعلم والجاه ، ويفرون بقدر ما يستطيعون من كل مصدر يجلب لهم الأذى ويسبب لهم الآلام

---

[1] المائدة : ٧٦ .

[2] طـــه : ٨٩ .

[3] يونـــس : ٤٩ .

ولكنهم بالغيب أجهل ، وعن فطنة الأطلاع عليه ابعد ، فقد يطلع الله انبياءه على بعض الأمور التى هى من علم الغيب ، والتى تتعلق بوظيفة الرسالة كالملائكة والحساب والثواب والعقاب ، وأن ما يطلع عليه الرسل من ذلك لا يكون من علمهم الكسبى ، لأن النبـــوة غير مكتسبة ، ويقول الله عز وجل ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهـــم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا ﴾ [1] .

وهذا الفهم يحرر العوام من استيلاء بعض الدجالين عليهم لادعائهم انهم يطلعون على المستقبل ، ويكشفون للناس عما سيكون لهم من أمور الدنيا ، وهذا تنجيم نهى عنه الإسلام ، ووصفه نبيه بالكذب والضلال ، كما أنه يقعد بالهمم فيعطل الناس عن السعى ويجعلهم يتعلقون بأوهام وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، وهذا الادعاء يدل علـــى ضعف النفوس التى تدعى علم ما لاسبيل إلى علمه ، ويدل كذلك على تفاهة العقـــول التى تصدق ذلك الوهم ، وتخضع لتلك الخرافات ، مع ان الله سبحانه يأمر انبيـــاءه بـــأن ينفوا عن أنفسهم هذا العلم الغيبى ، ليفرغوا عقائد قومهم لعبادة الله وحده والتوجه اليـــه دون سواه ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكـــم أنى ملك إن اتبع الا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ [2] .

فما دام الله تعالى لم يؤت الرسل ما لم يؤت غيرهم من التصرف فى المخلوقات ومن علم الغيب ، فليس لمن هم اقل منهم مرتبة وأدنى مقاما ان يدعوا لأنفسهم ما ليـــس لهم ، وان يخدعوا العوام فيصرفوهم عن التوجه إلى الله بالتوجه اليهم ، وعن دعائه بالتعلق بهم ، مع أن الدعاء - كما قال رسول الله ﷺ (مخ العبادة) أى خلاصتها وحقيقتها.

وحين يتقلص ظل الدين فى قلوب المنتسبين اليه ، تضيع حقيقته من نفوسهم فلا تبقى منها إلا الظنون ﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ فالقرآن الذى أنزله الله ليخرج

---

[1] الجـــن : ٢٦ - ٢٨ .

[2] الأنعام : ٥٠ .

الناس من الظلمات إلى النور يتحول من قلوب الكسالى نورا وهدى إلى اسماعهم نغمات وألحانا ، وآيات الرزق التى تحث المؤمنين على السعى والطلب يفهمها القاصرون على انها تدعو إلى الكسل والتواكل وطلب الرزق ونحن نيام .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد دعانا إلى الإيمان بالغيب مما لا تدركه حواسنا وان كان حقيقة لايعلمها إلا هو سبحانه ، فإنه قد دعانا كذلك إلى كشف ما يمكن ان تصل إليه الحواس ، والى أستغلال كل ما يمكن ان نكشفه من طاقات ، والى ان ننقب فى الأرض فنستخرج مكنونها ، ونغوص فى البحر فنستخرج كنوزه ، ونحلق فى الفضاء فنعرف أسراره ، وحين نفعل ذلك فإننا لا نشارك ربنا فى الإطلاع على الغيب ، ولكننا نستقبل فضله فى إقدارنا إلى البحث والتنقيب فى حدود إيماننا بقدرته التامة على النفع والضرر ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم . قل انتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ [1] .

العدالة شريعة الله

﴿ يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون ﴾ [2] .

إن العدل صفة نبيلة من صفات المؤمنين ، وعليها قامت الدعوة إلى دين الله وبها أمر الله كما أمر بغيرها من الصفات النبيلة فقال ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ [3] . وقال فى موضع اخر ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [4] . فالعدل واجب فى الأقوال كما انه

---

[1] يونس : ١٠١ - ١٠٢ .

[2] المائدة : ٨ .

[3] النحل : ٩٠ .

[4] الأنعام : ١٥٢ .

واجب فى الأفعال ، وبه تصلح شئون الناس ، ويقوم أمر العالم ، ولا يجوز لمؤمن أن يحابى فيه أحدا ، لقرابة أو لصداقة أو غير ذلك ، وفى هذا إختبار لعدالته وإيمانه ، فإن الإسلام يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى رفيع يقوم على أساس من هدى العقيدة فى الله ، ويتره المؤمنين عن الضعف البشرى الذى يضطره أحيانا إلى الجور والتعصب ، والإنقياد للآهواء ويدعو إلى اقامة الشهادة لله بالحق ولو كانت على النفس أو الوالدين والأقربين .

لأن العدل فوق الحقوق الشخصية وحقوق القرابة غيرها ، ولقد شاعت محاباة الأقربين والتعصب لهم بالحق والباطل فى الجاهلية ، حتى جعلت الواحد منهم يحمل سيفه ويحارب بجانب أهل عصبيته ظالمين أو مظلومين ، فهم لا يسألون أخاهم برهانا على صدق قوله أو عدالة موقفه ، ولكنهم يندفعون معه منقادين لعصبية مذمومة ونداء ظالم ، وجاء الإسلام فحظر محاباة المرء نفسه أو أهله وإعطاءهم ما ليس لهم من الحق ، ولقد روى عن ابن عباس أنه لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت البقرة أول سورة نزلت ، ثم اردفتها سورة النساء ، قال : فكان الرجل تكون عنده شهادة قبل ابنه أو أبن عمه ، أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى ، فنزل قول الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [1] .

ولقد جاء الأمر بالعدل فى الشهادة فى قوله عز وجل ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴾ . لأن القوامين بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها ، لذلك فقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة واقامة الوزن بالقسط لتأكيد العناية بهذه الأشياء .

ومن كان قواما بالقسط فقد أصبحت العدالة لازمة فيه وملكة راسخة فى نفسه.

وللعدل مجالات كثيرة نتلمسه فيها ونحتاج اليه حين تواجهنا هذه المجالات ، فهو مطلوب فيما يجب من العلاقة بين الزوجات والسلطان عليهم .

---

[1] النساء : ١٣٥ .

ولقد كان ينبغى ان يكون المسلمون بمثل هذه التعاليم الربانيـــة أعـــدل الأمـــم وأقومهم بالقسط ، كذلك كانوا عندما كانت تعاليم الكتاب احكاما تنفذ لا مجرد آيات تتلى ، وصـــــــدق عليهم قـــــول الله عز وجل ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [1] .

ولكن حين انحرف الخلق عن سيرة السلـــف ، ونبـــذوا هدايـــة القـــرآن وراء ظهروهم ، صارت أمم العالم تفخر عليهم بالعدل ، وصار الذين ليس لهم من الإسلام إلا إسمه يلتمسون من الأمم الأجنبية القسط والعدالة وهداية القانون .

وحين تكون الشهادة لله فإن المؤمن يجب عليه أن يتحرى الحق الذى يرضـــى الله لا الناس ، فهو لا يجامل أحدا لقرابته أو صداقته ، ولا يميل مع أحد لمطامعه وأهوائـــــه ، وإنما هو يقيم الشهادة إمتثالا لأمر الله وإتباعا لشريعته المستقيمة التى لا تنحرف ولا تجور.

ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها ، لأن الشهادة إظهار الحق ، ومن أقـــر كذلك بالحق على أهله وأقاربه فقد أنصفهم لأنه كفهم عن الظلم وأبعدهم عن الباطل ، ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه حث المؤمن على ان ينصر أخاه ظالما أو مظلوما . قيل يا رسول الله أنصره مظلوما ، فكيف انصره ظالما . قال : أن تأخذ على يده فتكفه عـــن الظلم ، وذلك نصره ... وليس من بر الوالدين أو صلة الأقربين ان يعينهم على ما ليس لهم بحق ، أو أن ننكص عن الشهادة من أجل إرضائهم ، وانما البر والصلة فى الحق والأمر بالمعروف واقامة الشهادة على وجهها .

وإن الذين يتعاونون على هضم حقوق الناس ، يتعاون الناس كذلك على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة فى الشهادة ، من أسباب إنتشار الظلم والعدوان وذلك من المفاسد التى تعود بالضرر على الأفراد .

وان شهادة الشاهد تكون لإرضاء الله لا لإرضاء الناس ، والعدل مـــيزان الله فى الأرض به ينتصف الله من الشديد للضعيف ، ومن المبطل للمحق ، وبـــالعدل يصـــدق

---

[1] الأعراف : ١٧١ .

الصادق ويكذب الكاذب ، ويوضع كل منهما فى موضعه الصحيح ، وكم من مجاملات فى حياتنا تجور فتقصى الأكفاء وتقرب الجهلاء فلا تجنى الأمة من ذلك الا الضياع والخسران .

وإذا وقعت المحاباة فى الشهادة أو إختل ميزان العدالة بين الناس ، زالت الثقة بينهم وتقطعت روابطهم الإجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، حين ذلك يسلط الله عليهم بعض عباده فيزيلون أستقلالهم ، ويذيقونه من الظلم الذى أذاقوه لغيرهم ، وتلك سنة الله التى شهدناها فى الأمم الحاضرة ، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة ، فكأن الإسلام ينبه الغافلين إلى أن الذى يجور منهم فإنما يجور على نفسه ، والذى يحطم ميزان العدالة اليوم ، فإن الدوائر تدور عليه فى الغد ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ [1] .

فلا عذر لمؤمن فى ترك العدل وعدم إيثاره على الجور والمحاباة ، بل عليه ان يجعله فوق الأهواء وحظوظ النفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها ، ولقد كان من آيات العدالة كما اشار القرآن ان يعدل الإنسان حتى مع أعدائه والمبغضين إليه ، فلا تمنعه عداوتهم وبغضاؤهم من قول كلمة الحق ، لأن هذه الكلمة فى هذا المجال هى أقرب إلى التقوى والبعد عن سخط الله وعقابه وقد يرى الإنسان بفكره الضيق ونظرته المحدودة ان الخير فى كتمان الشهادة أو تحريفها ، وانه إن أداها على وجهها الصحيح فسيجلب عداوة الأصدقاء ونفور الأقارب وشماتة الأعداء وهو من أجل ذلك يؤثر السلامة ، ويخلد إلى الطريق السهل الذى يستبقى صداقته لأصدقائه ومودته لأقاربه ، ولكنه لو درى عاقبة ما يفعل لأدرك أن الصداقة المبنية على الباطل لا تلبث ، أن تنهار ، والصلة الممتدة بحبال المجاملات لا تلبث ان تنقطع ، ومن أجل ذلك المعنى ختمت الآية بعد الأمر بإقامة الشهادة ومراعاة واجب العدالة والتقوى بقوله تعالى ﴿ ان الله خبير بما تعملون ﴾ لأن الخبرة هى العلم الدقيق الذى يؤيده الأختبار والله لا يخفى عليه شئ من أعمال الناس ظاهرها

---

[1] يونس : ٤٤ .

وباطنها ، ولا من نياتهم وحيلهم فيها ، فهو الحكم العدل القائم بالقسط ، وهو الـــذى يجزى الناس بالعدل على تركهم العدل وقد مضت سنته فى خلقه لأن جزاء ترك العـــدل وإقامة القسط فى الدنيا هو ذل الأمة وهوانها ، وإعتداء غيرها من الأمم على استقلالها ، ولقد قال نبينا عليه السلام "(إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو) [1] .

وصدق الله العظيم حيث يقول﴿ فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وإن تلوا أ وتعرضوا إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

إحساس المؤمنين بعدالة الله فى الثواب والعقاب

﴿ افأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب مـــن حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾ .

إن حواس المؤمنين يقظة دائما لكل ما خلقه الله ، ومشاعرهم دائما مشدودة إليه تبغى رضاه ، هم يوقنون إن ميزان الله عادل لا يجور ، وحكمته بالغة لا تقصر ، وحسابه قائم لا يحابى ولا ينحاز ، ﴿ ليجزى الذين أســـاءوا بما عملوا ويجزى الذين احســـنوا بالحسنى ﴾ [2] . فأساس القرب من الله اوالبعدعنه هو الإحسان أو الإساءة والطاعـــة أو المعصية .

والمؤمنون رغم صلتهم بالله وقرب مترلتهم منه يمثلون هذا المقياس العادل دائما ، ويلتزمون به فى كل ما يأتون وما يدعون ، فلا يغرهم رضا الله عنـــهم فيقصـــرون ، ولا يقنطهم غضبه عليهم فييأسون ، وإنما هم سائرون على الطريق ، مجتـــهدون ليصلـــوا إلى الغاية ، متيقظون لحلم الله على المسئ ، ورحمته بالمخطئ ، وفرحته بالتائب ومـــع ذلـــك فإنهم لا يأمنون مكر الله لأنه ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ [3] .

---

[1] رواه الطبرى عن جابر .

[2] النجـــم : ٣١ .

[3] الأعراف : ٩٩ .

ولقد روى عن ابى بكر انه كان يقول : لو كانت احـــدى قدمـــى فى الجنـــة والاخرى خارجها ما أمنت مكر الله . وهذا لون من استشعار الرقابة الالهية ، ومعرفـــة بطبيعة العدالة الربانية ، فإن الله قد يعفو وقد يغفر ، ولكنه لا يضل ولا ينسى .

فإذا زل العبد للضعف البشرى المركب فيه ، فإن الله يفتح له باب التوبـــــة ويمد له حبال الأمل ، ويقول للمذنبين مثل قوله عز وجل ﴿ قل يا عبادى الذين اســـرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ [1]

ولكنه إذا استمر فى المعصية واغتر بالغفران ، فإنه حينئذ لم يقدر عفو الله حـــق قدره ، و لم يؤمن حق الإيمان بأن ، القادر على العفو قادر على البطش ، وبأن (الغفـــور الرحيم) هو شديد العقاب ، وهذه الآيات التى تزرع الأمل فى نفوس المذنبين .. تمتـــد لتبعث النذر فى نفوس المتهاونين .﴿ وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له مـــن قبـــل ان يـــأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، وابتعوا احسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ﴾ .

وإن غضب الله على المنغمسين فى الخطايا ليعد غيرة على حدوده التى يجـــب ان تحفظ ، وعلى محارمه التى يجب ان تصان ، لقد جاء فى الحديث النبوى الشريف (إن الله يغار ، وان المؤمن يغـــار . وغيرة الله أن يأتى المرء ما حرم الله) [2] .واقـــتراف المحـــرم لجرائمه ، وانسياقه وراء شهواته ، إنما يعد استهانة بحدود الله ، مخاصمة لملـــك شديـــد العقاب ، وتمردا على رب ﴿ تسبح له ما فى السموات السبع والأرض ومن فيـــهن ، وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماغفورا ﴾[3] .

ولولا أن رحمة الله تسبق غضبه ، وانه يمهل الظالمين ليفسح لهـــم مجـــال التوبـــة فيهتدوا بعد ضلال ويرشدوا بعد غى .. لولا هذا لأخذهم بذنوبهم ، ولأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن

---

[1] الزمـــر : ٥٣ .

[2] رواه البخارى .

(٣) الإسراء : ٤٤ .

يؤخرهم إلى اجل مسمى ، فإذا جاء اجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا﴾ [1] .

مع ذلك الأمهال الذى يستوجب العرفان ، وهذا الغفران الذى يقتضى الإقلاع عن الذنوب ، فإن الإنسان ما يزال يقارف المعصية ، ويرتكس إلى الرذيلة ، فإذا أسرع الله بعقابه فقد حكم فعدل وقدر فانتقم ، وعاقب فأصلح الأرض وطهر العباد ، وإذا أجل عقابه فليحذر ويتذكر ، وليوقظ المشاعر الحية بالعفو ، وينبه النفوس الناسَية بالحلم لعلها تفئ إلى أمر الله ، وتعود إلى طريق الرشاد ، وأن الذى يدعو إلى الدهشة فى طباع البشر ، ان يد الله تعمل من حولهم ، وان قدرته تحيط بهم ، وانهم يجدونه فى كل لحظة من لحظات حياتهم فى اليقظة والمنام ، وإذا غفل احدهم عن الله حين تكلؤه النعمة ، فإنه يتذكره ويتجه اليه حين ترزؤه النقمة ، ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل ، وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله .. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من اصحاب النار ﴾ [2] .

ومع ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون فلا يعود مكرهم إلا عليهم لأنه ﴿ لا يحيق المكر إلا بأهله ﴾ . ويظل الذين أفلتوا من عقاب اله العاجل آمنين سادرين ، وكأنهم ليسوا فى قبضة الله الذى يمهلهم ان شاء ويأخذهم بذنوبهم ان شاء ، بل ليسوا هم وحدهم فى قبضته ﴿ فالأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ [3] .

وهؤلاء الغافلون لا يخشون ان تمتد اليهم يد الله فى صحوهم أو منامهم ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى البلاد للتجارة أو السياحة أو غير ذلك ، أو يحل بهم العذاب وهم يتوقعونه متيقظين لوقوعه ، فلا ترد يقظتهم شيئا من أمر الله ، ولا يحول توقعهم شيئا من قدر الله .

---

[1] فاطر : ٤٥ .

[2] الزمر : ٦٧ .

[3] الزمر : ٦٧ .

لأنهم لما وقعت منهم المعصية لأول مرة ، وقعت فى الخفاء وعلى استحياء ، ثم زاولوها وقد تبلدت مشاعرهم وتجمدت ضمائرهم ، ثم صاروا على كثرتهم مجتمعا يتعارف أهله على الخطيئة ، ويلتقى أفراده على الآثام .

فإذا انحط المجتمع إلى هذا الدرك فهو مجتمع الخطيئة وقد جاهروا الله بالحرب فانتقم منهم بالعدل ، والعدل هنا ان يحمى حدوده من العدوان ، وان يدافع عن محارمه من التبذل ، وهو حين ينتقم فإنما ينتقم عادلا ، وإذا عفا فإنما يعفو قادرا .

﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ [1] .

ومن هنا نتبين ان الاسلام يفرق بين نوعين من المعاصى :

النوع الأول : ذلك الذى يأتيه صاحبه دون قصد ، أو فى لحظة من لحظات الضعف البشرى الذى يلم بالناس جميعا ، فإذا استيقظت نفسه ، وتنبه ضميره ندم على ما فعل ، وأحس بالذنب فأصلح العمل ، واستشعر المعصية فجدد التوبة ، ولا يخلو بشر من خطأ ، كما لا يخلو مجتمع نظيف من نكتة سوداء .

ومثل هذا العبد يفسح الله له طريق الإصلاح ، ويفتح له باب التوبه ، ويدعوه الى ان ينهض من كبوته ، وان يستأنف السير فى الطريق الواصل إلى الله .

أما النوع الثانى : فهو الذى يأتيه صاحبه عن وعى كامل وعمد قديم ، وقد قطع فيه شوطا طويلا فاستمرأه وأصر عليه وواجه المجتمع به .

وهذا النوع من العصيان لأوامر الله ، والتحدى لتعاليمه يعد حربا سافرة يعلنها العصاة على الله ، والله سبحانه وتعالى لا يقهر ولا يغلب ، فكان من رحمته ان يعفو عن الذين وضعوا اقدامهم على أول الطرق المعصية ليرجعوا عنه ، وكان من عدله ، ان يبطش بالغارقين فى الآثام ليكونوا عبرة لمن عداهم ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله حليما حكيما ﴾ .

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر احدهم الموت قال :

---

[1] العنكبوت : ٤ .

﴿ انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا اليما ﴾ [1] .

والتعارف على الخطأ والصواب يتم فى (وسط اجتماعى) والخير كما عبر الرسول ﷺ يتطلب الأعوان عليه ليصير علامة واضحة فى طريق الحياة ، وليصبح سمة مميزة فى سلوك الناس .

ومن ثم كانت تربية النشء رسالة يجب ان يتنبه لها المصلحون الغيورون ، وأن يغرسوا الفضائل فى النفوس حتى تصير ملكة هادية .

ودستورا رشيدا ولا يتم ذلك الا على أساس من العقيدة الصالحة ، فالشباب الذى لا عقيدة له ، أو الذى تنفصل عقيدته عن مشاعره ، يعيش حياته قلق النفس موزع الخواطر ، لأن العقيدة هى مصدر الإيمان ، والإيمان هو الذى يخلق وسائل النجاح بين طيات العدم واليأس ، فإذا فقدت الأمة عقيدتها فقدت إيمانها بكل شئ وكانت هدفا لنقمة الله وغضبه ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كان مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون ﴾ [2] .

---

[1] النساء : ١٧ - ١٨ .

[2] القصص : ٥٨ - ٦٠ .

الإسلام دين الإنسانية الشامل

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [1] .

لقد جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون فى الأنساب والألوان والأوطان ، فيرى شعب انه فوق الشعوب ويرى جنس أنه سيد الأجناس ، ويفتخر قوم على قوم آخرين بلون أو قومية أو أرض .. ثم صاح الإسلام فى الناس صيحة واحدة ، ودعاهم إلى الوحدة الانسانية الجامعة ، هذه الوحدة التى لا تنتمى إلى جنس ، ولا تتعصب لمذهب ، ولا تنحصر فى حدود وطن الإسلام ، والإسلام دين الله الذى ارتضاه لعباده ، ووطن هذا الدين الأرض كلها ، لأن رسول الله ﷺ قد بعث إلى الناس كافة ، الأبيض منهم والأسود على السواء ، ولا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى .

والقاعدة الأصلية لهذه الوحدة الجامعة فى الإسلام هى وحدة الأمة ، مصداقا لقوله عز وجل مخاطباً أمة الإسلام ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [2] ولقد بين الله سبحانه وتعالى انه خاطب الانبياء جميعا بهذه الوحدة حيث قال ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم ، وإن هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [3] .

وإذا كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه ، فإن أمة محمد ﷺ هى الناس جميعا ، وان وطن هذه الأمة هو الأرض كلها ، وقد فرض الله تعالى على هذه الأمة الايمان بجميع رسله وعدم التفريق بينهم ، لتتم فى التقاء الأديان وحدة الدين وتتم فى التقاء الأمم وحدة الانسانية ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ [4]

---

[1] الحجرات : ١٣ .

[2] الأنبياء : ٩٢ .

[3] المؤمنون : ٥١ -٥٢ .

(٤) البقرة : ٢٨٥ .

وبذلك كانت وحدة الإسلام وحدة فى الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم ، ووحدة فى الدين بإتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر حيث سوى بينهم فى أحكامه وفى أخرته الروحية وعبادته ، فالصلاة مثلا تجمع بين الأغنياء والفقراء والملوك والسوقة ، والحج مؤتمر عالمى يجمع الشعوب المتباعدة على صعيد واحد ، وإذا الفروق فى اللون والجنس والأرض قد ذابت فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإيمان ، وقد بلغ النبى ﷺ ذلك للأمة يوم العيد الأكبر بمنى فى حجة الوداع هذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف والى ترك التعادى بالتحالف ﴿ يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير﴾ [1] .

ومن ثم فإن الناس فى شريعة الله سواء ، لا يفضل بعضهم بعضا الا وفق مقاييس عادلة وضعها أحكم الحاكمين ، ووحدة التشريع بالمساواة تجمع الخاضعين لاحكام الإسلام فى الحقوق بالعدل المطلق الذى لا ينحرف ولا يجور ، فكل البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة ، وحكم الإسلام فى معابد الملل كلها انها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، ولا يجوز لغير أهلها دخولها بغير اذن منهم ، المسلمون منهم وغيرهم فى هذا سواء .

ولقد كان من ملامح الوحدة الإنسانية فى هذا الدين ، ان كتابه المنزل قد نزل بلغة عربية مبينة جمعت الناس عليه بالتلاوة والتدبر ، وكان المؤمنون مسوقين بإعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ، حيث كانت هذه المعرفة فى حد ذاتها لوناً من ألوان العبادة ، يتقرب بها المسلم إلى الله كما يتقرب اليه بالصوم والصلاة .

وكان حرص الرسول ﷺ على وحدة الأمة الإسلامية وتماسكها وإن تباعدت اطرافها وتعددت ، انه ان كان ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق والعصبية ، ويشبه وحدتهم الجامعة بالجسد الواحد ، حيث يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم

---

[1] الحجرات : ١٣ .

وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[1] .

وكانت تلك الدعوة إلى الجنس النسبى الذى يعرفه سائر الجنس البشرى ، ثم يرجع إلى هذه الدعوة دعوة اخرى تقوم على وحدة اللسان ، فعن أبى سلمه بن عبد الرحمن قال : (جاء رجل إلى حلقة سلمان الفارسى وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، فما بال هذا ؟ فقام اليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى النبى ﷺ بمقالته ، فجاء النبى ﷺ مغضبا يجر رداءه حتى أتى المسجد فخطب فى الناس : (يأيها الناس ان الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية فيكم بأب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى)[2] .

والرسول ﷺ – هنا – لا يدعو إلى التمسك باللسان العربى بقدر ما يدعو إلى نبذ العصبيه بالجنس العربى ، فالإسلام ذوب الجنسيات ، وجعل الفارسى والرومى والحبشى أبناء امة واحدة ، فسلمان منا أهل البيت ، وصهيب سابق الروم وبلال مؤذن الرسول ، فالكل يتجهون إلى قبلة واحدة هى أساس الوحدة فى الصلاة وهى رمز الوحدة فى الحياة .

ولو ظل المسلمون على هذه التربية الرشيدة ، يحفظونها تعاليم دين ، ويسلكونها منهج حياة ، ويلتزمون بها قانون أمة ... لو فعلوا ما دب الخلاف بينهم ، وما حكم الشقاق أحوالهم ، وما كان لهذه الفواصل من الجنس أو اللون أو اللغة حياة فى صفوفهم ، فلقد كانوا باسم الإسلام قائمين على رياسة روحية يدين لها المشرق والمغرب ، ولو أوتوا من العلم والحكمة ما يحسنون به القيام ، ومن الحزم والعزم ما يعززون به القيادة ، ومن النظام ما يحكمون به السياسة ... لأمكنهم ان يسوسوا ويملئوا العالم عدلا بعد ان ملأه

---

[1] رواه الأمام أحمد ومسلم .

[2] رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى .

حكامه جوراً ... ولكن لأن حضارة الإسلام مرتبطة دائما بمبادئه ، فإن المسلمين يتخلفون عن الحضارة لأنهم يتخلون عن المبادئ ، وبقدر التزامهم بهذه المبادئ يحكمون بها أنفسهم قبل ان يحكموا غيرهم تهدى القلوب إلى دينهم إيمانا به ، كما تسارع الشعوب إلى امتهم تمسكا به .

وإيمان المسلمين بوحدتهم يجب ان يكون نابعاً من إيمانهم بأن دينهم هو الدين وبأن عقيدتهم هى العقيدة ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [1] . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [2] .

فليست الدعوة إلى الوحدة - حينئذ - دعوة إلى العصبية ، وليس الإنتماء اليها لوناً من الانتماء الجاهلى الممقوت ، وإنما هى الوحدة الشاملة التى تظلها العقيدة ، والعقيدة هى الملة التى أختارها الله لعباده ليصحح بها اتجاه البشرية فيما يتعاملون وفيما يدينون .

وحين جعل الله أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس ، لم يكن ذلك لأنهم ينتسبون إلى اشرف جنس ، أو لأنهم يمثلون أقدس قومية ، ولكن لأنهم يرتبطون بدعوة هى الدعوة التامة ، ويكونون أمة هى الأمة الواحدة ، ويحملون كتاباً هو الكتاب الجامع ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف ،وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ [3] .

وحين نزل القرآن بمبادئه يلزم بها اتباعه الذين آمنوا به ، ويدعو اليها اعداءه الذين خالفوه كان يدعو الانسان بالمعنى الشامل للإنسانية ، الانسان الذى كرمه الله فخاطبه ، وشرفه فكلفه وقدره فجعل نسبته اليه ، فهو الإنسان الربانى الذى يسمع بسمع الله ويرى ببصره ويهتدى بنوره .

---

[1] آل عمران : ١٩ .

[2] آل عمران : ٨٥ .

[3] آل عمران : ١١٠ .

فليس الإسلام – اذن – هو الدعوة الإقليمية التى تلصق أهلها بقطعة من الأرض وتدعوهم إلى حماية مساحة من التراب ، وليس صيحة قومية تشيد بأهلها فترفعهم – بالحق وبالباطل – على سائر القوميات ، وليست فكرة ذهنية تلتف حولها مجموعة من الدارسين لها إهتمام بالنظريات والفلسفات .

ولكنه دعوة شاملة للإنسان فى كل بقاع الأرض دين ودنيا عقيدة وحياة ، مبدأ وسلوك .

به يصير العبد إنسانا بعد أن لم يكن ﴿ شيئا مذكوراً ﴾ وبه يحيا حياة الإنسان بعد ان كان ميتاً ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [1] .

---

[1] الأنعام : ١٢٢ .